عبر الغيوم

لقطات جويّة مختارة من مجموعة فؤاد دبّاس للصور

ظهرت فكرة التقاط صور من الجو واستخدامها لوضع الخرائط، عام ١٨٨٥ في كتاب أندرو (Andraud) عن المعرض الكوني الذي نُظِّم في العام نفسه.

أحدثَ المصوّر الفرنسي، نادار، منذ محاولاته الأولى لالتقاط صور جوية انطلاقًا من المنطاد في ستينيات القرن التاسع عشر، ثورة في عالم التصوير الفوتوغرافي وعلوم الطبوغرافيا.

خلال الحرب العالمية الأولى، أصبح اللجوء إلى التصوير الجوي أمرًا معتمدًا في الأوساط العسكرية. فقد بات التصوير الفوتوغرافي من الجو يتيح، مع ربطه بالمراقبة على الأرض، إنجاز مهام استطلاعية على مساحة واسعة.

في بلدان المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي، كانت الفرقة ٣٩ في سلاح الطيران في جيش المشرق، التي كانت تتخذ من الرياق مقرًا لها، تؤمّن دعمًا جويًا للسيطرة على بعض المناطق، أو وضع خرائط جغرافية، أو إنشاء شبكة طرقات.

تجسّد ألبومات عدة في مجموعة فؤاد دباس، المسارات التي سلكتها أسراب الطائرات المختلفة التابعة للفرقة ٣٩ في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. المشاهد هي نفسها في معظم الأحيان: كان المطلوب تحديد مواقع الموانئ، والمدن والقرى، والجسور وسواها من البنى التحتية، والحصون والقلاع الواقعة على تلال يتعذّر الوصول إليها، أو تحديد تحرّكات البدو في صحراء سوريا.

متحف سرسق Sursock Museum

١٣ أيّار – ١ آب ٢٠١٦

التصوير الجوي، مشروع جريء

كان مشروع المصوّرين من الجو جريئًا، لأنهم كانوا يواجهون صعوبات تقنية عدّة مرتبطة بعمليات التصوير، تُضاف إليها الأحوال المناخية، وظروف الطيران فضلًا عن ارتجاجات آلة التصوير.

سعى المصوّرون باستمرار إلى تحسين معدّات التصوير. عدّلوا أنظمة التعليق واخترعوا كوابح للصدمات مصنوعة من المطاط الرغوي لتفادي الحصول على بقع مشوّشة كنتيجة مباشرة للارتجاجات التي يسبّبها محرّك الطيارات. وجَب أن تكون آلات التصوير الجوي متينة، ومجهّزة ببعد بؤري ثابت وكبير لا يختلّ تحت تأثير الارتجاجات، وبؤر ذات لوحات حسّاسة كبيرة وقوية بما يكفي. ووجب أن يتمكّن المصوِّر من القيام بدوران أفقي وعمودي ومائل. كان الطاقم يتألف في شكل عام من ثلاثة أشخاص: الطيّار، والمراقِب، والمصوِّر. بعد إتمام الرحلة الاستطلاعية، كانت خطة الطيران تُقرَّر بحسب زاوية النظر، والعلو المرتفع (بين ١٠٠٠-١٥٠٠ متر عن سطح الأرض) والعلو المنخفض (٣٠٠ متر)، وأحوال الطقس، أو أيضًا وضعيّة الشمس.

يبدو واضحًا، في ما يتعلق بالصور المضمّنة في المعرض، أنها التُقِطت في جوٍّ صافٍ، وأن أشعة الشمس المنخفضة تكشف تفاصيل إضافية على الأرض، أو أيضًا أن التحليق على علو منخفض يسمح بمراقبة البنى التحتية بتمعّن أكبر. إذًا التصوير من الجو هو ثمرة تنسيق عوامل عدّة بإتقان ودراية.

الصفحة السابقة
مصوّر مجهول الهويّة، منسوب إلى خدمة التصوير
من فرقة المراقبة ٣٩ في سلاح الجو في جيش المشرق
طائرتان أثناء الطيران، قرابة ١٩٢٦-١٩٣٠
طباعة بالزلال وجيلاتين الفضّة، في ألبوم، ١٠٫٥×١٦ سم

الكولونيل دومارسيه (الطيار) والكولونيل دافيد (الرقيب)
بيروت، السراي والمرفأ، قرابة ١٩٢٦-١٩٣٠
طباعة بالزلال وجيلاتين الفضّة، في ألبوم، ١٨ × ٢٤ سم

الصفحة القادمة
مصوّر مجهول الهويّة، منسوب إلى خدمة التصوير
من فرقة المراقبة ٣٩ في سلاح الجو في جيش المشرق
وادي القبور في تدمر، قرابة ١٩٢٦-١٩٣٠
طباعة بالزلال وجيلاتين الفضّة، في ألبوم، ١٨ × ٢٤ سم

خدمة التصوير من فرقة المراقبة ٣٩ في سلاح الجو في الرياق

عند انتهاء الحرب العالمية الأولى، في نيسان ١٩٢٠ تحديدًا، عهدت عصبة الأمم إلى فرنسا إدارة لبنان والأقاليم المجاورة (البقاع وحاصبيا وراشيا)، والساحل المتوسطي الممتد من عكّا (غير مشمولة) إلى إسكندرون. بموجب اتفاقات سايكس-بيكو، تمركزت القوات الفرنسية في المشرق اعتبارًا من عام ١٩١٧.

اتّخذ سلاح الطيران الفرنسي من مدينة الرياق في سهل البقاع مقرًا له. وكانت مهمة الفرقة المتمركزة هناك الاستطلاع ووضع تقارير عن الأرتال والتشكيلات والجنود العاملين في المنطقة. وكانت خدمة التصوير في فرقة المراقبة ٣٩ في سلاح الجو تتألف من أسراب عدّة مهمتها تصوير الموانئ والمدن والطرقات الأساسية، فضلًا عن القلاع والمواقع الأثرية. من المصوّرين الذين تُعرَف أسماؤهم في الفرقة ٣٩ ديفيد وبيات ودروار الذين وضعوا توقيعهم على بعض الصور الجوية في مجموعة فؤاد دباس.

تقدّم لنا بطاقات بريدية عدة أرسلها ضباط أو جنود فرنسيون كانوا متمركزين في الرياق، شهادة فريدة عن حياتهم في المعسكر أو في الميدان:

«عزيزي جان،

أتمنّى أن تعذرني على التأخر في الرد. سررت كثيرًا بتلقّي رسالتك، لا سيما وأنني كنت في قطار مصفّح على بعد ٨٠ كلم من المعسكر عندما تسلّمتها. إذًا يحاول غاستون منافستي في تجارة نبيذ الـ«بوردو» الأبيض وشراب الـ«توران».

أعتقد أنه عليه بذل قليل من الجهود كي يصل إلى مستوانا. لا تقل له. عندما أعود، سأعطيه بعض الدروس.

هنا، يقول البدو إنه بعد شهر، سيحل السلام. الدروز وقطّاع الطرق يتنقلون في كل مكان أو يتوجّهون إلى فلسطين. هذا لا يفاجئني، لأن هناك أرتالًا عدة، وكلما مرّوا في مكان ما، نذهب إلى هناك. لكن بعد خمسة عشر يومًا، يثورون من جديد. آمل أن تكون المرة الأخيرة، وأن أعود إلى فرنسا بعد ثلاثة أشهر. ليس الأمر أكيدًا، وما زال لدي متّسع من الوقت لأتغوّط.

في الانتظار، أستودعك السلام وأشدّ على يدك.

تحياتي إلى لويس والجميع.

موريس.»

كان الحضور الفرنسي في المشرق مهدَّدًا من القوميين الذين كانوا يتطلعون إلى إنشاء سوريا موحّدة ومستقلة، ما أدّى إلى اندلاع ثورة جبل الدروز بين تموز ١٩٢٥ وآذار ١٩٢٧.

الصفحة القادمة
مصوّر مجهول الهويّة، منسوب إلى خدمة التصوير
من فرقة المراقبة ٣٩ في سلاح الجو في جيش المشرق
قاعدة عسكريّة جويّة في الرياق، قرابة ١٩٢٦-١٩٣٠
طباعة بالزلال وجيلاتين الفضّة، في ألبوم، ١٨ × ٢٤ سم

BAYOU
AERO

«انقلاب النظرة[١]»

في التصوير الفوتوغرافي من الجو، تنقلب نظرتنا إلى العالم: «تتحوّل الأرض سجادة ضخمة من دون أطراف، من دون بداية ولا نهاية[٢]».

تُقدّم الصور الجوية، سواءً كانت عمودية أو مائلة، تجربة جديدة في التعاطي مع الفضاء، ونستشفّ من خلالها أيقَنة جديدة تتجسّد في شكل خاص في التكعيبية والتجريد الهندسي. شكّك الفنانون، على غرار جورج براك أو روبرت ديلوناي، في المنظور، ووضعوه في دائرة الخطر، مجسّدين على سطح مستوٍ واحد الزوايا المختلفة للموضوع المطروح. هذه السجادة التي لا أطراف لها، والتي ليست لها بداية ولا نهاية، هي أيضًا السجادة في لوحات All-Over بريشة جاكسون بولوك. يتعذّر التعرّف على المنظر عند رؤيته من علُ؛ يفقد المرء ركائزه، ويقوده نظره إلى الوقوع في الخطأ. لا يعود قادرًا على التمييز بين الكِبَر اللامتناهي والصِّغر اللامتناهي. خير مثال على ذلك الصورة الفوتوغرافية المعنونة «تربية الغبار» (L'élevage de poussière) بعدسة مان راي ومارسيل دوشان (١٩٢٠)[٣].

---

١. Thierry Gervais. « Un basculement du regard », *Études photographiques*. 9 Mai 2001.

٢. Nadar (Gaspard Felix Tournachon). *Quand j'étais photographe*. Paris: Ernest Flammarion éditeur, 1900.

٣. David Campany. *Dust: Histoires de poussière d'après Man Ray et Marcel Duchamp*. Editeur: Mack, 2015.

مصوّر مجهول الهويّة، منسوب إلى خدمة التصوير
من فرقة المراقبة ٣٩ في سلاح الجو في جيش المشرق
بصر الحرير (سوريا)، قرابة ١٩٢٦-١٩٣٠
طباعة بالزلال وجيلاتين الفضّة، في ألبوم، ١٢×٢٤ سم

الصفحة القادمة
مصوّر مجهول الهويّة، منسوب إلى خدمة التصوير من
فرقة المراقبة ٣٩ في سلاح الجو في جيش المشرق
مدينة حلب والقلعة، قرابة ١٩٢٦-١٩٣٠
طباعة بالزلال وجيلاتين الفضّة، في ألبوم، ١٠،٥×١٦ سم

بمساهمة كريمة من المكتبة الشرقية.

غرافيكيّات المعرض: ماينـد ذي غاب

الترجمة إلى اللغة العربيّة: نسرين نادر
تصميم المنشورة: ماينـد ذي غاب
الطباعة: بيبلوس برينتينغ

مجموعة فؤاد دبّاس للصور

مجموعة فؤاد دبّاس للصور هي مقتنيات فوتوغرافيّة تضمّ أكثر من ٣٠ ألف صورة من منطقة الشرق الأوسط – تحديدًا من لبنان، سوريا، فلسطين، مصر، وتركيا – تعود إلى الحقبة الممتدّة بين ١٨٦٠ وستينيّات القرن العشرين. تكوّنت المجموعة على مدى عقدين من الزمن، حيث أنشأها رجل كان شغوفًا بتكوين المجموعات، هو فؤاد سيزار دبّاس (١٩٣٠-٢٠٠١)، الّذي آمن بأهمّيّة جمع وحفظ الصور كوسيلة للحفاظ على التراث الثقافي.

تُحفظ وتُعرض المجموعة في متحف سرسق بفضل عائلة دبّاس، وهي تتألّف من بطاقات بريديّة وصور مناظر تجسيميّة (ستيريوسكوبيّة)، بالإضافة إلى صور متقادمة مطبوعة بتقنيّة الزلال ورسومات بتقنيّة الحفر وكتب، جميعها تتعلّق بمنطقتنا. وتشكّل هذه المجموعة، بمواصفاتها الإستشراقيّة والنمطيّة التجاريّة، جزءًا مهمًّا من مجموعة متحف سرسق، وهي تُضيء على الدور المحوريّ الذي لعبه التصوير الفوتوغرافي في تطوّر الفن الحديث في لبنان.

متحف نقولا إبراهيم سرسق
شارع مطرانيّة الروم الأورثوذوكس
الأشرفيّة، بيروت، لبنان
www.sursock.museum